الفصل الثاني

لماذا باعت فرنسا العرب ؟

obeikan.com

obeikan.com

الظاهرة الساركوزية!

يقولون إن نيكولا ساركوزي- هذا المجرى الذي يحكم فرنسا من قعد الإليزية وضع كتابا صغيرا منذ أكثر من ربع قرن بعنوان: عندما أكون رئيساً لفرنسا تحدث فيه عن تصوراته لفرنسا، وأوروبا والعالم، وعن الساركوزية (مذهباً) في السياسة والحكم. ويقولون أيضا إن مفاتيح شخصية ساركوزي هي:

النساء، والزعامة. ولقد وجد ضالته المنشودة في وقت مبكر عندما ارتبط (سياسيا) بالرئيس الفرنسي السابق جاك شيراك، (وعاطفياً) بابنه شيراك الكبرى (ماليري) التي كانت تعمل مستشارة صحفية (خاصة) لوالدها..

وكان شيراك يبارك علاقة ساركوزي بابنته وينظر إليها بارتياح وقيل أنه همس في أذن ساركوزي قائلاً متى سأحمل وبعد كما.. أريد أن أكون جداً!

فتصّنع ساركوزي الخجل وهبط بعينيه ينظر إلي الناحية الأخرى!

وفي هذه الأثناء كان شيراك يعتبر الشاب نيكولا ساركوزي تلميذا في مدرسته السياسية.. متوسماً فيه أن يكون الامتداد الطبيعي له عندما يصل إلي قصر الإليزية.. لكن ساركوزي رجل رأسمالي حتى النخاع، ففي الانتخابات الرئاسية الثانية لشيراك اصطف إلي جانب إدوار بالادور- خصم شيراك، ويُري أن معشوقته (ابنه شيراك) انتظرته خلف باب البيت الذي يسكنانه وهي تحمل حقيبة ملابسها وهددته: إما أن يكف عن مساندة خصم والدها (بالادور) وإما أنها سوف ترحل وتقطع علاقتها به، وتنتهي كل مشاريعها العاطفية والزواجية..

(؟؟؟) جريدة (البطة العرجاء) الساجدة التي تصدر في باريس فإن ساركوزي لم يأبه لتهديوها ودخل يبحث عن شيء يأكله في المطبخ! وانتهت العلاقة.. فكان ذلك أكثر ما أحزن شيراك وأسكن قلبه الهموم..

ولأن ساركوزي لا يستطيع العيش دون رعشات الحب، انتقل كالعصفور

يغرد على شجرة أخرى صاحبتها هذه المرة إحدى الصحفيات الجميلات.. ولم يكن يتردد- وكان وزيرا معروفا- في أن يسير معها في الحي اللاتيني القريب من جامعة السوربون لأنه- بما يقول- هو المكان الأثير إلي نفسه.

والعجيب أنه كان ينسج خيوط هذه العلاقات الحرة في مهارة شديدة رغم أنه كان زوجاً السيدة بحبها وله منها ابن (يسير على خطى والده حاليا في السياسة والحب!) وكلنا يعرف كيف انتهت قصته مع زوجته الأولى التي رفضت حياة القصور الرئاسية وقررت الانفصال عن زوجها (الرئيس) وفضلت لبس الـ (تي شيرت والجينز) على ملابس السهرات وإقامة الاحتفالات..

ولم تتردد في أن تترك ساركوزي (نهائيا) لتذهب إلي صديق من أصول مغاربية يعمل مديرا لشركة تسويق وإعلانات!

وبعد «اتفاق ودي» بين ساركوزي وزوجته، حدث الانفصال، لكن سريره- في قصر الإليزيه لم يبق شاغراً إذ جاءته صديقة قديمة له- هي عارضه الأزياء الإيطالية- لتشاركه النوم والصحو وما بينهما!

ومن الطرائف التي تروي في هذا الخصوص أن ساركوزي مفتون بالجمال ويقول عن نفسه إنه عابد في محراب الجمال، ويجد نفسه مشدوداً يريد أن يطبع قبله على كل ما هو جميل.. ويؤكد ذلك شكوى.. صاحبتها هي السيدة أنجيلا ميركل مستشارة ألمانيا عندما أبلغت ساركوزي أن يكف عن تقبيلها والاقتراب منها ووضع يده على جسمها! وقيل إن ساركوزي قد راغ منها كما يروغ الثعلب.

والثابت أن نيكولا ساركوزي يطرب كثيرا عندما يجد نفسه مادة للميديا تلوكه بين أسنانها ليل نهار.. ويروي أحد أصدقائه المقربين أنه يعيش أزهي مراحل حياته العاطفية والسياسية لأن أمنيته كانت أن يملأ الدنيا ويشغل الناس «وهو ما يحدث حاليا..

ولا يستهجن ساركوزي الحوادث التي تجري له حتى ولو كانت مثيرة..

المهم أن تجعله على ألسنة الناس ومنها أن بعض القراصنة قد دخلوا على حسابه البنكي وسرقوا بعضا من أمواله.. وأن إحدى دور النشر أصدرت نحو ٢٠ ألف دُمية مرسوم عليها صورة الساركوزي باعتباره شخصية شريرة.. على أن يغرس فيها الناس الدبابيس (وهو شكل من أشكال التسلية!!)

ويضحك ساركوزي- في شيء من غيظ ويقول: لكل منا تسليته الخاصة.. ويتجه من فوره ليناقش أمور السياسة الدولية مع صديقه ووزير خارجيته برناركو شنيدا..

ويُروي أنه في كل مرة يلتقيه يقول له: هيا بنا يا صديقي نتسلى! ويقصد أن يتحدثا في الأمور الجارية..

ولأن الزعامة هي (حلم قديم) يدغدغ مشاعر ساركوزي منذ كان صغيرا، فلقد واتته الفرصة لكي يمارسها.. فأحدث زلزالاً في علاقة سوريا بلبنان، وجعل الأولى تعترف بالثانية فأصبح الحلم حقيقة..

ثم يتجه وحيداً إلي موسكو ليلتقي هناك بالرئيس الروسي ميدفيديبيف ورئيس حكومته بوتين، وينزع فتيل الأزمة بين موسكو وواشنطن (أقصد بين جورجيا وسيتيا الجنوبية) ويحل سلام حذر بعد أن كانت الصواريخ في الجانبين تنتظر لحظة الانطلاق والتدمير..

وقبل ذلك طاف عدداً من الدول الخليجية وحصن عشرات المليارات من الدولارات عبر اتفاقات ثنائية غير مسبوقة وزرع لبلاده قاعدة عسكرية في دولة الإمارات العربية ليدشن بذلك مرحلة استعمارية جديدة لفرنسا، ويطوف البحر المتوسط باتحاد- هو ثمرة من ثمار أفكاره المتطلعة نحو الزعامة..

ثم لا يتردد في أن يذهب إلي واشنطن مؤكداً- بأعلى صوت- أن أمريكا التي تسببت في حدوث الأزمة المالية العالمية، عليها أن تشارك في الحل.. ولم ينس أن

ينتقد النظام الرأسمالي وطالب برأسمالية جديدة يسميها رأسمالية الملتزمين رافضاً رأسمالية المحتكرين..

وهكذا استطاع ساركوزي أن يرمي سهماً في كل الاتجاهات وتغفر بفرنسا ليكون لها مقعد دائم في قيادة النظام العالمي وتذكر صحيفة لوباريزيان أن ساركوزي أراد بذلك أن يُخرج لسانه- استخفافا- بأولئك الذين راهنوا عليه وقالوا: كيف الرجل فشل في إدارة علاقاته النسائية أن ينجح في علاقاته السياسية والدولية؟!

الرأسمالية الساركوزية.. انطلقت من هنا!

تتحدث الأوساط الأوروبية عما يُسمى بالظاهرة الساركوزية نسبة إلي الرئيس الفرنسي السابق نيكولا ساركوزي الذي كان لا يكف عن إثارة اللفظ حول نفسه عن حق أو عن (؟؟؟) وجه حق. فالرجل كان لا يخفي طموحه في أن يقفز ببلده لتكون شريكاً حقيقياً في القرار الدولي وقيادة العالم وتتجاوز مرحلة ترك القرارات لأمريكا على أن تتولى هي- وبعض الدول الأخرى- مسؤولية تسديد فاتورة الحساب..

ولقد بدأ هذا الأمر واضحاً عندما تعمد ساركوزي أن يدس أنفه في الأزمة اللبنانية، ونجح- فعلاً- في أن يخفف ينابيع سوء الفهم- التي كانت قائمة- مع سوريا- بل استطاع أن يقنع دمشق بأن تخطو خطوة غير مسبوقة وهي إقامة علاقات دبلوماسية مع بيروت..

واستحق ساركوزي بذلك أن يرفع له الجميع القبعة تقديرا وامتنانا.وعندما اندلعت أزمة أوسينيا الجنوبية وجورجيا، توجه ساركوزي باسم فرنسا والاتحاد الأوروبي معاً، إلي القوقاز ونجح في تهدئة الأوضاع ونزع فتيل الأزمة بين جورجيا وأمريكا (من ناحية) وروسيا من ناحية أخرى، وأزال فحادث روسيا من محاولة حلف الناتو تطويقها عسكرياً..

وسجل المجتمع الدولي لساركوزي امتنانه لقدرته الدبلوماسية على القيام بدور الوسيط التربة، والراعي للأمن والاستقرار في منطقة القوقاز (؟؟؟) الدور الذي لعبه بين الفرقاء هناك..

وتساءت الأقدار أن تتلاحق المهام التي يقوم بها ساركوزي فاندلعت الأزمة المالية في أمريكا والسوق العالمية، وتحولت إلي أزمة اقتصادية وتكاد تصبح أزمة سياسية دولية.. ولم يتردد ساركوزي في أن يذهب برفقه أما نويل باروزو رئيس المفوضية الأوروبية آنداك إلي نيويورك ليجرى مباحثات سريعة وعميقة وجادة مع الرئيس الأمريكي السابق جورج دبليو بوش (؟؟؟) أصلاً بتجميع حقائبه تمهيدا للرحيل من البيت الأبيض) وانتزع منه موافقته على عقد قمم عالمية لسير أغوار هذه الأزمة التي لو لم يُقرر للعالم احتواؤها لأنهار النظام الاقتصادي العالمي بأكمله..

وهكذا ارتبطت الأحداث العالمية بشخص ساركوزي الذي لم يتردد لحظة في توجيه اللوم إلي الممارسات الاقتصادية الأمريكية محّملاً واشنطن الجانب الأكبر من مسئولية الأزمة المالية.. وفي الحديث عن تنظيم الرأسمالية العالمية طالب أن تكون رأسمالية الملتزمين وليس المحتكرين، وطرح فكرة إقامة حكومة اقتصادية في منطقة اليورو تعمل إلي جانب البنك المركزي الأوروبي، وتسدد- في الوقت ذاته- على إنشاء صناديق سيادية تكون مهمتها التدخل في وقت الأزمات..

والثابت أن هناك التفافاً حول أفكار ساركوزي الذي ينظر إليه البعض على أنه الامتداد الطبيعي للآباء المؤسسين لأوروبا العظمى..

كفانا انبهاراً بفرنسا.. وساركوزي!

وحدها الميديا العربية هي التي وضعت جولة الرئيس الفرنسي السابق ساركوزي في منطقة الشرق الأوسط بأنها ناجحة ومُثمرة مع أنها ليست كذلك في الميديا الفرنسية التي رأت أنها رحلة فاشلة لم يحرك الرئيس الفرنسي فيها ساكناً

وحسبه أن وزع ابتساماته الباهتة في أكثر من مكان، ووقف وراء «الميكرو» يتحدث ويُسهب في الحديث.. لكن شيئا (ما) لم يتحرك! والسبب كما يقول- هو أنه لم يكن يريد غير ذلك وحسبه أن يبيع «الوهم» للمصريين والعرب فقط!

وللإنصاف لم تذكر الميديا غير الواقع والحقيقة، فالسيد ساركوزي وقبل أن يزور المنطقة في جولته المكوكية (هذه) قد استبقها بتصريح يؤكد فيه حق إسرائيل في أن تدافع عن نفسها بالطريقة التي تراها.. ولذلك حكم على جولته بالفشل لأنه وقف في صف إسرائيل قلباً وقالباً.. وتعامل مع الواقع الفلسطيني وكأنه واقع إرهابي، ومن حق إسرائيل أن تجتثه من جذوره!

والحق إن ساركوزي قد ضحك على الجميع عندما تحدث مساعدوه عن مبادرته التي تستهدف وقف إطلاق النار لمدة ٤٨ ساعة وهي المبادرة التي قيل إنها (إنسانية الهدف والمغزى..) والثابت أن الرجل لم يبادر بشيء.. وحسبه أن باع الوهم لنا، ولذلك عندما وقفت السيدة ليفني وزيرة الخارجية الإسرائيلية وتشد على (سلم) معد الاليزيه في باريس وأعلنت رفضها الكامل لفكرة الهُدنة الإنسانية لم يناقشها ساركوزي الذي كان يقف بجوارها، وبدأ وكأنه يسمع عن هذه المبادرة لأول مرة.. وكان مثيرا للاهتمام ألا يُعلّق برناركو شنبر وزير خارجية فرنسا السابق.. وكان الأمر لا يعنيه لا من قريب ولا من بعيد..

وهذا معناه أن شيئاً (ما) لم يحدث على الأرض، وإنما عقولنا العربية هي التي اخترعت هذه الصورة الطيبة لرئيس فرنسا (ساركوزي)! وليس يغيب عن بالنا- قط- أن هذه المرة.. ليست الأولى التي باع لنا فيها- السيد ساركوزي- الوهم اصفافاً مضاعفة. فكلنا يذكر حلمه الذي ملأ عليه كل حياته وهو مشروع الاتحاد من أجل المتوسط الذي تحدث عنه في حملته الانتخابية، ونذر له الأشهر الأولى من حياته الرئاسية في قصر الاليزيه. وأدخل فيه إسرائيل عنوة ورغم أنف المعترضين.. والمعيبة الأعظم أنه مارس ضغوطاً جبارة لكي يعطي إسرائيل مقعد الأمين العام المساعد في الاتحاد الوليد.. ولم يُلق بالاً للاعتراضات العربية وأكد

أن وجود إسرائيل داخل هذا الكيان المتوسطي الجديد سيُكسبه ثقلاً واحتراماً وتحاشى أن يفتح معه أحد ملف الاستيطان، أو القدس أو اغتيال التيارات الفلسطينية وتجويع أطفال ونساء غزة..

وسعي إلي إقناع الدول العربية الأعضاء في الاتحاد من أجل المتوسط بأن وجود إسرائيل فيه لن يؤثر على أي شيء مهم في مسيرة الاتحاد، مع أن القاصي والداني يعلمان أن الزخم الذي قدمه الاتحاد إلي إسرائيل لا ينافسه آخر، وأن هذه الوضعية الجديدة لإسرائيل كأمين عام مساعد لن تضيف إليها جديدا.. مع أن دافع الحال يؤكد غير ذلك، فإسرائيل بهذا الموقع قد حصلت على الذبدة وأموال الذبدة في آن واحد- وباتت موائد الباحثات مع العرب مفتوحة آناء الليل وأطراف النهار.. بل بات على العرب أن يُصغوا جيدا لما يقوله قادة إسرائيل الحالمين بسيطرة العقل اليهودي، على النفط الخليجي، والأيدي العاملة المصرية.. وهو ما أصبح حقيقة بفضل «حضور» ساركوزي «وغيّبة» العرب –كل العرب- وبرع ساركوزي في الهروب من أية أسئلة تكشف مزاعمه متدثراً في رداء الحكيم الذي يريد للشرق الأوسط أمنا وسلاما واستقراراً.

رغم أنه لم يُقدم شيئاً يؤكد صدق نواياه تجاه العرب وقضاياهم بالإجمال.. واللافت للنظر أنه- فيما يتعلق بإسرائيل- كان إيجابيا إلي أقصى الحدود، منها هو- مثلاً- يُعّد على أن تتبنى فرنسا موضوع توقيع العلاقات السياسية والدبلوماسية بين إسرائيل والاتحاد الأوروبي بحيث تصبح الدولة العبرية- والحالة هذه- شريكا فاعلاً ببحث مع الأوروبيين في قضايا الأمن بالمنطقة، وتكون عضواً أساسياً في أية مباحثات تتناول شمال أفريقيا.. وتُدلي بدلوها في قضايا الاستثمار في جنوب المتوسط. بكلمة أخرى إن ترفيع مستوى العلاقات- بهذه الصورة- يعطي إسرائيل امتيازات تفوق ما يحصل عليه الأعضاء المؤسسون للاتحاد.. وإذا علمنا أن إسرائيل- بهذه الصفة- تتفوق على كل الدول العربية

التوسطية لأدركنا على الفور أن ساركوزي لا يضع في ثورة اهتمامه إسرائيل، وما حديث الغزل العفيف التي يُسّر بها أحيانا بشأن العرب سوى دخان أبيض في الهواء!!

والمؤلم أن ساركوزي يفعل كل ذلك عياناً جهاراً ودون موارية، فإسرائيل هي واسطة العقد في كل سياساته الخاصة بالشرق الأوسط: أمنها، واستقرارها، وحدودها، أما الدول العربية فهي موجودة بالقدر الذي يستفيد منه ساركوزي.. أقول ذلك وفي ذهني العقود الضخمة التي وقعّها مع ليبيا والإمارات والسعودية والجزائر.. ولم يتردد لحظة واحدة عندما سئل عن استضافة بلاده للرئيس الليبي السابق معمر القذافي الذي تعتبره بعض الأوساط السياسية الفرنسية مُجرماً آثماً بسبب تورط بلاده في أزمة لوكير بي وغيرها من الأزمات التي تتعلق بأفريقيا السوداء.. فأجاب: إنني اعرف ذلك عنه، لكنني مددتُ إليه يدي لأنني بحاجة إلي تشغيل مئات الألوف من العاطلين في فرنسا.. وهو ما سيتحقق بعد توقيع العقود التي تصل قيمتها إلي نحو عشرة مليارات يورو!!

إذن لا وجود للعرب في سياسة ساركوزي إلا عندما يتعلق الأمر بمصلحة آتية ستعود عليه بالنفع حتماً.. وهو بعكس الموقف الفرنسي من إسرائيل الذي هو في الأصل موقف داعم ومؤيد على طول الخط.. ولقد أكده ساركوزي نفسه عندما قال في أكثر من مناسبة: إن إسرائيل هي الصديق الاستراتيجي الوحيد لفرنسا في منطقة الشرق الأوسط.

وعلى أية حال، فإن التحركات الأخيرة للسيد ساركوزي وما قيل عنه- في الصحافة الإسرائيلية- إنه نقل كلاماً غير دقيق عن كبار المسؤولين في مصر زاد الأجواء تعكيراً وأدى إلي تلبّد الغيوم في سماء المنطقة.. كل ذلك ليس إلا مؤشراً على أن الرئيس الفرنسي قد باعنا الوهم فعلاً لا قولاً. وهو ما يعني أنه بات (؟؟؟) وعلينا أن نحذر منه ولا ننتظر منه غير الحنظل المرّ!

وحول هذه النقطة عديدا تتساءل صحيفة البطة المربوطة (؟؟؟) الساخرة: ماذا ننتظر من رجل فشل في إدارة شئون حياته الزوجية (بالإشارة إلي زوجته الأولى التي تركته لتعيش مع رجل أعمال مغربي).. إنه بالقطع سيفشل أساسياته الخارجية مثلما فشل في إدارة سياسته العاطفية! وذكرت أن زوجته هجرته بعد أن اكتشفت أنه كان يبيعها الوهم سنينا عدداً.

ساركوزي.... فوق صفيح ساخن!

الحق إن الرئيس الفرنسي السابق نيكولا ساركوزي ترتعد فرائسه، وكذلك حكومته منذ امتد لهيب المظاهرات والاحتجاجات إلي الجامعة.

فذكريات مظاهرات عام١٩٨٦ التي أطاحت بشيخ اليمين في فرنسا الجنرال ديجول وحكمت عليه أن يموت في قريته النائية عن باريس كما تموت الإبل، ما تزال شاخصة في الأذهان.

والثابت إن نيكولا ساركوزي قد استهان بكل شيء وأسقط ورقة المهاجرين (وذوي الأقدام السوداء) من حساباته رغم أنه مهاجر جاء والده إلي فرنسا واستوطنها وخالط أهل باريس.

لكن الشعب الفرنسي لم ينس ذلك، وظل يتعامل معه كمهاجر قادم إلي فرنسا وبالتالي لم ينس له مجموعة أخطائه وعدم احترامه لقواعد اللعبة السياسية كما يعرفها الغرب.

فقد اعتاد الفكر الغربي علي محاكمة أي رئيس بعد مرور مائة يوم إلا أن ساركوزي رفض ذلك وذهب إلي أن المحاكمة يجب أن تكون في نهاية الفترة الرئاسية وليس بعد مرور عشرة أسابيع ونيف.

ولم يشأ ساركوزي أن يتعلم من أخطاء اليمين واليسار علي السواء واستهان كثيرا بموقف سلفه جاك شيراك عندما ضحي الأخير برئيس وزرائه قربانا

للجماهير التي كانت تتلمظ وتخلي عن إصراره الخاص بقانون الوظيفة الواحدة.

والمعروف إن ساركوزي أعطي نفسه الحق في أن يفكر بطريقة أخري ويري أنه مثل الجيل الذي ولد بعد الحرب العالمية الثانية وبالتالي لا يحمل ذات القيم التي يحملها جاك شيراك ومعاونوه..

وتركهم يخرجون من الباب الخلفي لقصر الإليزيه!

وإعجابه الشديد بأمريكا بوش الابن لم يلق هوي عند الجماهير الذين لم ينسوا انه عندما كان مرشحا رئاسيا وجه لوماً رئاسيا في واشنطن سلفه الرئيس جاك شيراك لأنه لم يساعد الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن في احتلاله العراق كما اسبغ علي الرئيس الأمريكي آنذاك الصفات الحميدة، ورأي أن العالم كل العالم في حاجة إلي تقليد أمريكا اقتصاديا وسياسيا، كما أوسع مكانا رحبا للأمريكان في أوروبا وغاب عن باله إن شريحة ليست يسيرة ضمن الفرنسيين لا تؤمن بالأفكار التوسعية لبوش الابن.

ونسي أن مؤامرة١١ سبتمبر٢٠٠١ قد فضحها كاتب فرنسي الأصل اسمه تيري ميسان في كتابه الشهير الخديعة الكبرى وذهب ساركوزي رغم ذلك إلي مسعى أن تكون فرنسا صورة أخري لأمريكا

وقد ظل افتتانه لها مستترا حتى بعد وصول أوباما.. وعلي خريطة أوروبا لم تنس له الجماهير أنه أعاد صياغة معاهدة برشلونة وذهب إلي أن أوروبا بدورها ليست إلا تابعا لأمريكا تأتمر بأمرها والدليل علي ذلك أن الخط الساخن بين أوروبا وأمريكا مشتعل.

وأنه لا توجد فروق خطيرة بين الموقف الأوروبي والموقف الأمريكي إزاء قضايا العالم ومنها قضية الشرق الأوسط.. وقد ظن ساركوزي أن عودة الانخراط الاستعماري في الإمارات العربية عن طريق القاعدة العسكرية التي بناها هناك أو

إطلاق سراح الممرضات البلغاريات في ليبيا قد أسعد الجماهير لكن هيهات!

فالعقل الجمعي الفرنسي لم ينس انه عجز عن أن يسوس أمر منزله وترك زوجته الأولي تتزوج من صديقها المغربي، وعندما قرر أن يتزوج، جاء بساكنة قصر الإليزيه من إيطاليا (أقصد زوجته الثانية) ولقد غاب عن باله أنه صدم الجماهير الفرنسية مثني وثلاث ورباع وتدثر بموافقة الجمعية الوطنية ومجلس الشيوخ والنقابات وترك المظاهرات يمتد لهيبها إلي الجامعة وهي قدس الأقداس الذي يعمل له أي رئيس (؟؟؟) ألف حساب واستمر ساركوزي في عناده ونسي أن سلفه الذي نفي انه ليس شبيها له وأن فرنسا لا تورث! استجاب في ظروف مماثلة ولم يركب عناده.

والحق إن ساركوزي لا يحترم قواعد اللعبة السياسية ورغم أنه يميني حتى النخاع إلا أنه لم يحترم اليمينيين وأطاح بهم من كل المناصب واستعان بكوشنير وهو من عتاة الاشتراكيين في منصب وزير الخارجية!

ثم لم يلق بالا لجموع الاشتراكيين الذين يقودون المظاهرات ضده ورفعوا شعار: أن رجلا عجز عن إدارة شؤون نسائه كيف له أن يدير شؤون فرنسا بيمينها ويسارها علي السواء

وقد ألب جموع المهاجرين ضده فلم ينس سكان الضواحي، وهم بالملايين إهماله المتعمد لهم منذ كان وزيرا للداخلية ووصفه لهم بالحثالة...وجرأته في التعامل معهم داخل أقسام الشرطة.

لذلك كانوا الأكثر بين المتظاهرين والمحتجين.

الطريف أن العرب ينظرون إلي ساركوزي الذي (؟؟؟) أنه فوق صفيح ساخن والبديل عن أوباما الذي تنكر لكل كلمة قالها في جامعة القاهرة جورج بوش الابن الذي كان يتعامل معهم وكأنهم مواطنون من الدرجة الثانية.

الغريب أن العرب قد أدمنوا النظر أن فرنسا مطلقة شعار: حرية إخاء مساواة مع أن واقع الحال يقول أن فرنسا (؟؟؟) ليست فرنسا الماضي.

أقول إن العرب قد أدمنوا النظر إلي الغير إلا ذواتهم مع أن رفعتهم أو انحطاطهم لا تأت ألا من خلال الذات وليس الآخر..

يكفي أخيرا أن نعلم أن ساركوزي كان في أحط الدرجات بحسب استطلاعات الرأي، وأن الجماهير الغاضبة كانت تري أنه قد يكون «المثال» الرئيس الذي لم يجلس إلا مدة واحدة.

ساركوزي.. والأزهر الشريف

ليس من حق المسلمين (في مصر) وغيرها من الدول الإسلامية أن يعترضوا على قرار الجمعية الوطنية (البرلمان الفرنسي) الخاص بمنع ارتداء النقاب في فرنسا هذا ما أجمعت عليه وسائل الميديا الفرنسية، خصوصاً صحيفة «لوموند» التي أشارت إلى أن هذا القرار يحظى بتأييد الأزهر الشريف في مصر!

وذكّرت الصحيفة بالزيارة التي قام بها نيكولا ساركوزى (عندما كان وزيراً للداخلية) إلى مصر، والتقى فيها شيخ الأزهر وحصل منه بحسب تعبير «لوموند» على صك غفران أو فتوى تبيح له أن يفعل ما يشاء ضد الحجاب والمحجبات!

المعنى الذي تروّج له وسائل الميديا ومراكز صنع القرار في فرنسا هو أن الموقف (الحاد) الذي أعلنه البرلمان الفرنسي هو قرار مقبول إسلامياً، فالأزهر الشريف – الذي يوصف بأنه إحدى قلاع الإسلام – قد شرعن موقفاً مشابهاً فرنسا ضد الحجاب.. والأهم من ذلك أن بعض وسائل الميديا قد أشارت إلى مواقف مشابهة اتخذتها مصر مؤخراً بشأن النقاب، فأبرزت صوراً لشيخ الأزهر وهو يُعنف إحدى الطالبات ويأمرها بخلع النقاب.. كما أن قرار وزير التعليم العالي يصب في الاتجاه نفسه عندما منع الطالبات من أداء الامتحان إلا بعد أن

يخلعن النقاب.. ولقد سبقته المدن الجامعية في مصر واشترطت خلع النقاب لانتظام الطالبات في المدينة!

وفي كل الأحوال، ليس من شك في أن البرلمان الفرنسي قد أحرج الأزهر الشريف حرجاً بالغاً، لأنه أوضح – عبر الميديا التي تنقل عنه وتفسر قراراته – أن موقفه من النقاب قد تمت شرعنته من هيئة إسلامية كبرى هي الأزهر الشريف في مصر، وهذا معناه أنه لولا هذا الغطاء الشرعي الذي أضفاه الأزهر على مثل هذا القرار، ما كان بالإمكان استصداره على الأقل في هذه المرحلة وبهذه الدرجة من الحدة التي تصل إلى منع النقاب في الأماكن العامة كالشوارع والميادين والمقاهي، والمحال الكبرى.. وفرض غرامة باهظة على المخالفات!

وفي ظني أن أعضاء الجمعية الوطنية الفرنسية الذين صوّتوا لصالح القرار (قد هدأت نفوسهم وقرت عيونهم..) لأن الأزهر الشريف دون غيره من المؤسسات الدينية في العالم الإسلامي قد أعطى البرهان القاطع على موافقته على قرارهم.. لماذا؟ لأن الفرنسيين يعرفون جيداً «دور» الأزهر الشريف منذ الحملة الصليبية عندما كان الجامع الأزهر قلب المقاومة المشتعل وطنية وغيرة على مصر والإسلام والمسلمين.. ويرون أن فتاوى الأزهر هي الطريق الأقصر نحو الوصول إلى قلوب وعقول غالبية المصريين.

الشيء الثاني أن أئمة كباراً بحجم الإمام محمد عبده، والشيخ مصطفي المراغى، والشيخ مصطفي عبد الرازق، لا تزال تحفظ الذاكرة الفرنسية تراثهم ومواقفهم.. وأكاد أقول إن هذه القامات الإسلامية حاضرة إلى اليوم في قاعات الدرس بالجامعات ومراكز الأبحاث المهتمة – أساساً – بالاستشراق.. فها هو شيخ المستشرقين الفرنسيين، ويُدعى جاك بيرك، كانت أمنيته أن يقدم شيخ الأزهر (الراحل جاد الحق) ترجمته الشهيرة لمعاني القرآن الكريم أسوة بالشيخ المراغى الذي قدم لترجمة الإنجليزي مارما ديوك..

وعندما انتقد الدكتور عبد الرحمن بدوى رغبة جاك بيرك مشيراً إلى أنه لا قيمة لتقديم شيخ الأزهر لترجمته بزعم أن الأزهريين – كما كان يقول عبد الرحمن بدوى – لا يعرفون العربية حق معرفتها فكيف لهم أن يعرفوا لغة فولتير! رد عليه جاك بيرك مؤكداً ثقته في الأزهر والأزهريين وقال بالحرف الواحد: لست مع بدوى فيما ذهب إليه – لأن الأزهر – يبقى في كل الأحوال قلعة الإسلام في هذا الزمان.. وكل زمان!

والثابت أن الطلاب الأزهريين الذين يدرسون في الجامعات الفرنسية يتلقفهم الأساتذة الذين يتباهون بهم – وبجامعتهم – فأذكر أنى حضرت مناقشة لرسالة دكتوراه كان أعدها طالب لبناني درس في الأزهر الشريف، وفوجئت بأن الأستاذ المشرف وهو مستشرق فرنسي يُدعى روجيه أرنالديز، يقرظ الطالب ويثنى على جهده العلمي وبحثه الأكاديمي، ولم ينس أن يعلن أمام الحضور أنه كان متردداً في قبول الإشراف على أطروحة هذا الطالب اللبناني، لكن هذا التردد قد زال تماماً فور معرفته بأن هذا الطالب من خريجي الأزهر الشريف

وأخذ الرجل يتحدث طويلاً عن الأزهر (الجامع والجامعة) والعمائم والفكر الطموح.. دون أن يفارقه الإعجاب بهذه القلعة التي وصفها بأنها الحصن الحصين للإسلام، وحارسة الفكر والاستنارة!

إذن هذه الصورة التي تسكن العقل العلمي والأكاديمي الفرنسي عن الأزهر هي التي دفعت رجال السياسة إلى اللجوء إلى الأزهر الشريف لكي يحصلوا منه على صكوك الغفران على حد تعبير «لوموند» الفرنسية..

السؤال الآن: هل يعرف الأزهريون «حجم» و«وزن» و«ثقل» هذا الجامع في عيون وعقول أهل الفرنجة (قديماً وحديثاً).. وماذا عساهم يفعلون بعد أن ورطهم ساركوزى في فتوى يحسبها الكثيرون (غطاء شرعياً) لقرار سياسي بامتياز هو قرار الجمعية الوطنية الفرنسية الذي يقضى بخلع النقاب بالقوة الجبرية؟!

حكاية ساركوزي مع النقاب!

اعتدنا منذ سنوات ألا يمر عام أو عامان إلا وتنفجر قضية الحجاب الإسلامي في فرنسا.. ولقد تفجرت القضية مؤخرا بتصريح رنان أطلقه الرئيس السابق ساركوزي أمام مجلس البرلمان (النواب والشيوخ) لكنه يتعلق هذه المرة ليس بالحجاب المألوف والشائع دائما بالنقاب الذي اعتبره الرئيس الفرنسي علامة استعباد للمرأة، أكثر من كونه إشارة تدّين!

ومن المهم أن نلفت الانتباه إلي أن قضية الحجاب عندما أثيرت بقوة في عامي ٢٠٠٣ و٢٠٠٤ كانت ضمن ما يُسمي برفض فرنسا للرموز الدينية المبالغ فيها وكان المقصود في حينها. الحجاب أو الرداء الذي تضعه الفتاة المسلمة على رأسها، أو (؟؟؟) اليهود التي تغطي جزءا من الرأس أو الصليب الذي يتدلى في رقاب الفتيان والفتيات من (؟؟؟) الديانة المسيحية.

ومن عجب أن تسقط من الذاكرة- عن عمد أو عن غير عمد- الرموز الدينية المسيحية واليهودية، وتظل الثورة والتمرد وربما الكراهية من نصيب الحجاب الإسلامي..

وتتدرج فرنسا- في موقفها هذا- بأنها إحدى قلاع العلمانية وبالتالي فإن التساهل مع الحجاب يعني- ضمن ما يعني- اعتداءاً صار على علمانية الدولة.

وأيا كان أمر التبريرات التي تسوقها الرئاسة أو (؟؟؟) الفرنسية ومن بينها أن نحو ٧٠ نائباً كانوا طالبوا بتشكيل لجنة للتحقيق في مصير الحجاب في فرنسا وعلاقة ذلك بعلمانية بلاد (؟؟؟).. ويقود هذه الدعوة النائب الشيوعي أندريه جيرين الذي يرى في لبس النقاب شكلاً من أشكال انتهاك الحرية الفردية على التراب الوطني الفرنسي!! إلا أن المحقق أن معالجة المسلمين لهذه القضية هو الذي يسكب الزيت على النار فتزداد اشتعالاً خصوصاً إذا لاحظنا أن مسألة النقاب

أو ما يُسمى بالبرقع هي عادة مرتبطة بمسلمين أفغانستان وحريم طالبان على وجه الخصوص..

وإذا تذكرنا أن أفغانستان تعني بالنسبة للعقل الغربي مُستودعاً للإرهاب، وأن النقاب لا يرتديه في فرنسا سوى مجموعة من السيدات قد لا يزيد عددهن عن عشرة أو عشرين على أقصى تقدير، لتبين لنا أننا أمام قضية فيها من الافتعال أكثر مما فيها من حقائق!

كما أن فيها من النفاق السياسي والتملق البرلماني القسط الوافر.. تاهيك عن أن بعض التحليلات ذهبت إلي أن الرئيس السابق ساركوزي تعمد إشعال هذه الحرائق ضد الحجاب والمسلمين الذين اعتبر ساكني الضواحي منهم مجرد «حثالة» أوباش أو حرافيش لا وزن لهم.. والأهم أنه أراد أن يشغل الرأي العام الفرنسي عن فشله في حل الأزمة الاقتصادية في بلاده..!

الرئيس فرانسوا ميتران «صناعة النهاية!

اختار الرئيس الفرنسي الأسبق فرنسوا ميتران أن تنتهي ولايتا حكمه الأولى (١٩٨١ – ١٩٨٨) والثانية (١٩٨٨ – ١٩٩٤) في مايو القادم بهذا اللغط الذي يملأ السماء الفرنسية والذي قسّم السياسيين والشعب الفرنسي على السواء إلي قسمين، قسم معه، وقسم عليه.

وأحسب أن هذا اللغط سوف يستمر بعض الوقت خصوصا أن الرئيس ميتران أو شيخ الاشتراكيين كما يُطلقون عليه، قد أولى بعد صمت أشبه بصمت أبي الهول بحديثين مُطولين، أولهما نشرته صحيفة «لوفيجارو» الفرنسية في يومين مُتتالين، والتاني أذاعته القناة التليفزيونية الثانية، وتناول فيهما عددا من القضايا الهامة التي تتعلق بسياسة فرنسا الداخلية والخارجية، والموقف من الوحدة الأوروبية، ثم تحدث طويلاً عن مرضه، وعلاقته بحكومة فيش..

ومما أعطى هذين الحديثين أهمية خاصة في هذا الوقت بالذات من حياة

الرئيس ميتران أنهما تضمّنا دفاعا مُستميتا عن اتهامات ألصقت بـه وصـدرت قبـل نحو أسبوعين في كتاب يحمل عنوان: «شباب فرنسي» لمؤلفه بيبر بيان، وأحـدث الكتـاب، حينئـذ ضـجة في الأوسـاط السياسـية، وخصوصـا في أوسـاط الحـزب الاشتراكي..

فقد ذكر الكتاب أن فرنسوا ميتران، أكبر شخصية اشتراكية في فرنسا اليوم، كان قد بدأ حياته يمينيا متطرفا، عندما انضم في سن مبكرة من حياتـه (في الثامنـة عشـر من عمره) إلى تنظيم شبابي يميني أسسه الكولونيل دي لاروك، قائد الصـليب. ولم ينكد فرنسوا ميتران هذا الأمر، بل زاد عليه قائلاً:

«إن بدايتي اليمينية، ليست اتهاما بالمعنى الحقيقي للكلمة، لأن يمينتي في هـذا الوقت المبكر من حياتي كانت شيئا طبيعيا، فقد كنت صغيرا، كما أنني متحرر مـن أسرة بورجوازية ريفية كاثوليكية محافظة، وإن لم تخلو محافظتها من اعتدال».

أما الاتهام الثاني فقد نشره الكتاب في شكل صورة فوتوغرافية للشاب فرنسـوا ميتران وهو يشارك في مظاهرتين، الأولى ضـد ارتفـاع نسـبة الملـونين في الجامعـة الفرنسية. أي أبناء المستعمرات الذين لا حق لهم في التعليم!

والثانية مظاهرة ضد أستاذ القانون اليهودي الـذي تجـرأ عـلى تقـديم النصـح للأثيوبيين ضد الإيطاليين. وهذه التهمة تُدمغ فرنسوا ميتران بالعنصـرية المقيتـة، ولذلك نجده في حديثيه المشار إليهما يذكر أن البيئة لها تأثير لا يُنكر على الإنسان، ثم يعود فيؤكد أن تربيته، ومشاعره لم تجعله في أي لحظة قريبا من مشاعر العنصرية ضد أي جنس أو شعب من الشعوب.

أما الاتهام الثالث الذي ألّب عليه شخصيات يهودية عديدة، فهـو تورطـه بمـا يزعم الكتاب، ليس فقط بالعمل في حكومة فيش التي كان يرأسها الماريشال بيتان ولكن أيضا اطلاعه على جانب هام من خبايا هذه الحكومـة، وخصوصـا الجانـب الذي يتعلق بالقوانين التي صدرت ضد اليهود وحمـلات الاعتقـال التـي تعرضـوا

لها..

وهنا يذكر فرنسوا ميتران في دفاعه أنه لم يكن سوى موظف صغير مُكلف بكتابة بعض التقارير ثم الاهتمام بإعادة تأهيل أسرى الحرب لاحقا. وهذه الوظيفة المتواضعة– في رأي ميتران– لم تكن تسمح له أن يعرف أشياء كثيرة عن فظائع حكومة فيش التي عرفها عنها كل الفرنسيين بعد ذلك.. ويؤكد الرئيس ميتران أنه في عام ١٩٤٢ كان يجهل تماما قوانين حكومة فيش المعتادة لليهود، وقد نسى من يتهمه بالتورط في هذه القوانين أنه كان لمدة عام ونصف العام، أسيرا في سجون ألمانيا ومن ثم لم يكن يعرف أي شيء عن الفظائع البربرية التي ثبتت على حكومة فيش بعد ذلك في عام ١٩٤٤.

وفي دفاعه يضيف الرئيس ميتران جملة قوية فيقول: أرجو ألا يعتقد أحد أنني أقدم أعذارا باسم فرنسا، فالجرائم التي ارتكبت، قام بها أعوان نظام فيش عندما استغلت الأقلية مناسبة الهزيمة، وأساءت سلطتها واقترفت الآثام ومن ثم فالجمهورية وفرنسا بريئتان من هذه الأفعال.

أما الاتهام الرابع الذي كشفه الكتاب أيضا من خلال بعض الرسائل والصور التذكارية فهو علاقة ميتران الحميمة بالسيد رينيه بوسكيه مسؤول الشرطة في حكومة فيش، والمنظم الأول للحملة على اليهود، وهو ما يعني إدماغه بعقدة السامية.

وهنا يؤكد الرئيس ميتران أنه لم يلتق ببوسكيه أكثر من عشر مرات طوال حياته وأن هذا الرجل قد برأته أعلى هيئة قضائية في فرنسا وهي محكمة أمن الدولة العليا من الاتهامات المنسوبة إليه.. وهي محكمة يعرف الجميع أنها لم تكن رحيمة بأحد.

وقال ميتران أيضا في دفاعه إن رينيه بوسكيه كان عضوا في مجالس إدارة عدد من الشركات الفرنسية، وهو شخصية معروفة، ولها صداقات مختلفة في الأوساط

السياسية والمالية، والصحفية وذكر أنه لم تكن تربطه ببوسكيه علاقات ودية قائمة، لكنه كان يتحلى بصفات جعلته لا يتحرج من التعامل معه.

وأضاف: لم ألتف به منذ عام ١٩٨٦، وبالتحديد منذ أن بدأ البعض يتحدثون عن أن المحكمة التي برأته لم تستند إلي وثائق كافية، كما أن مسؤوليته في جرائم حكومة فيش ربما تكون أكبر مما كنا تعرف أو نتصور..

وكان طبيعيا أن تصدم الاتهامات الخاصة بميتران- والتي لم ينكرها بشكل قاطع وإنما قام بتوضيح ظروف وملابسات معظمها- أقطاب الأحزاب اليسارية في فرنسا، فهاجمه الكثيرون وعلى رأسهم منافسه الاشتراكي المعروف ميشيل روكار الذي صرح بأن صدمته كبيرة، وأن قلقه لا محدود، بينما طالب أحد أعوان روكار بمقاطعة ميتران، والميترانية جزاء ما فعله ميتران في شبابه في حق فرنسا، والفرنسيين.

وبينما أبدى بعض الاشتراكيين مثل هنري إيما نويلي أمين عام الحزب الاشتراكي آنذاك ملاحظاته بهدوء وتعقل، فإن اليميني المتطرف جان ماري لوبن، علّق ساخرا وقال:

من منا العنصري، أنا، أم فرنسوا ميتران الذي كانت له علاقات وطيدة برينيه بوسكيه مُعذب اليهود الأول!

وعلى أي حال، لم تخلُ الأجواء من ظهور مساندين للرئيس فرنسوا ميتران مثل رولان دوما، وزير خارجيته السابق الذي صرّح بأن هذه الاتهامات هي من النوع العام الذي يمكن أن يوجه إلي أي شخص عايش تلك الفترة. وأضاف: إن الميترانية باقية، وأن ميتران لم يخن اليسار».

أما اليمينيون فقد اكتفوا بتصريح على لسان أحدهم وهو جيرار لونجيه وزير الصناعة الفرنسي الذي قال في شبه شماتة:

كل الناس يعرفون كل ما قبل عن ميتران، وليس ثمة جديد!

وأيا كان الأمر، فإن صدور كتاب «شباب فرنسي» والضجة التي أثارها ثم دفاع الرئيس ميتران عن نفسه في الحديثين المذكورين يطرح سؤالاً هاما وهو:

لماذا صدر الكتاب في هذا الوقت بالذات، أي قبيل انتهاء مدة ولاية الرئيس ميتران بعدة أشهر، ولماذا قدم الرئيس ميتران بنفسه كل الوثائق المتعلقة بحياته بين عامي ١٩٤٢ و١٩٤٣. لمؤلف الكتاب الذي لم يتورع عن استخدامها ضده؟

تختلف الإجابات وتتباين قربا أو بعدا من الحقيقة والصواب لكن أكثرها قبولاً للعقل والمنطق هي الإجابة التي تقول إن هذه الضجة لم تثر إلا بإعداد وترتيب مُسبقين من الرئيس ميتران نفسه، لأنه كان يعلم يقينا أن هذه الوثائق ستظهر يوما ما، وحتما ستطاله الاتهامات بمعاداة السامية، والضلوع في جرائم حكومة فيش.. ففضّل أن تظهر اليوم، لكي يتمكن- وهو في موقع القوة كرئيس دولة لآخر مرة في حياته- من تفنيدها ودحضها، والرد عليها..

بعبارة أخرى وبما يرى أحد المعلقين، لقد تم إصدار الكتاب «شباب فرنسي» وإذا تم الحديثين في (؟؟؟) والتليفزيون بترتيب من الرئيس ميتران لأنه يريد أن يطعن في كل الدعاوي والاتهامات الموجهة ضده، حتى ينحت لنفسه تمثالاً في نهاية حياته السياسية ولا يترك هذه المهمة لخصومه الذين (؟؟؟) تمثاله حتما إذا قاموا هم بذلك.

أيا كان الأمر، فالمحقق أن هذا الصخب الذي ملأ به خصوم ميتران ومنافسوه في اليمين واليسار معاً كل الأرجاء، كان لابد أن يؤثر معنويا على الأقل، على الرئيس ميتران، الذي عاد لصمته ثانية بعد أن أدلى بحديثيه لصحيفة الفينجارو، وللقناة الثانية بالتليفزيون. ويُقال إنه شعر بالألم يعتصر قلبه بسبب الأسلوب الذي تعامل به خصومه مع مسألة مرضه..

فالصحيح أن الرجل مُتعب، وأن المرض قد اشتد عليه في الفترة الأخيرة

خصوصا بعد أن تبين عدم جدوى الجراحتين اللتين أجراهما (الأولى في سبتمبر عام ١٩٩٢، والثانية في يوليو ١٩٩٤) منها هو يقول في حديثه المتلفز:

«سرطان البروستاتا الذي أعنى منه منذ عامين أصبح من الصعب التحكم فيه وقد ينمو ويتسع في المرحلة المقبلة، وأنا أشعر أنني في موقع النضال مع هذا المرض، ولذلك أتقمص روح المنتصر»

ويضيف: لقد كنت واضحا مع الشعب الفرنسي منذ البداية، وطلبت من الأطباء المعالجين أن ينشروا أخبار تطورات مرضى أولاً بأول. كما طلبت منهم أيضا أن يقوموا صورا من نتائج التحاليل الطبية الخاصة بحالتي، إلي عدد من الصحفيين وأصحاب الدوريات لكي ينشرونها..»

وأوضح الرئيس ميتران أنه سيبقى في مقعد الرئاسة حتى آخر يوم في ولايته الثانية حسبما يقضي بذلك دستور الجمهورية الخامسة، وأنه إذا شعر يوما أنه مُتعب إلي الدرجة التي يستحيل معها إدارة شؤون البلاد، فسوف يترك مقعده في الاليزيه «لكنني لا أفكر حاليا في ذلك، والشعب الفرنسي يعلم جيدا أنني أقوم بعملي على أكمل وجه».

لكن المحزن أن الأحاديث التي ملأت الأجواء تعليقا على ما ذكره الرئيس ميتران حول مرضه، كانت قاسية ومؤلمة، فارتفعت بعض الأصوات تطالب بضرورة البحث عن البديل منذ الآن، لأن الرئيس ميتران الذي بدأ متورم الوجه من أثر تعاطي الأدوية وخصوصا دواء «الكورتوزون» قد لا يتمكن من الاستمرار في مقعده حتى نهاية مدة ولايته في مايو القادم.. وكتبت بعضُ الأقلام تُذّكر بضرورة الرجوع إلي المادة السابعة في دستور الجمهورية الخامسة الذي ينص على أن رئيس مجلس الشيوخ هو الذي يشغل مقعد الرئاسة في حالة وفاة رئيس الجمهورية مثلما حدث مع السيد ألان بوهير الذي كان رئيسا لمجلس الشيوخ، وشغل المنصب في الفترة من ٢ ابريل حتى ٢٤ مايو ١٩٧٤ عقب وفاة الرئيس

الأسبق جورج بومبيدو.

وفي تعليقها على حديث ميتران المُتلفر، ذكرت صحيفة لوموند عبارة قاسية قالت فيها: «أن ميتران أثار عاطفة الفرنسيين لكنه لم ينجح في إخضاعهم»!

وهي بذلك تريد أن تقول إن الاتهامات التي ألصقها به كتاب «شباب فرنسي» ما تزال قائمة ولعلها ترمي إلي أن ما يذكره ميتران حول قدرته رغم مرضه على تسيير أمور الحكم، ليس مُقنعا أيضا!

وحول النقطة الأخيرة الخاصة بالمرض، يذكر المقربون من ميتران أنه ليس نادماً عندما طلب من أطبائه إفشاء أخبار مرضه ومراحل علاجه، لأنه كان يرفض أن يكون مرضه واحداً من أسرار الدولة العليا، كما كان الحال مع جورج بومبيدو، الذي ظل يعاني من مرض «سرطان العظام» وهو أقسى أنواع السرطان، لفترة طويلة دون أن يعلم أحد بذلك خارج دائرة معاونيه وعندما كان يضطره المرض إلي الاحتجاب أياما، أو التغيب عن رئاسة الاجتماعات الوزارية، كانوا يتذرعون بأنه مريض بنزلة برد حادة ألزمته الفراش!

ولم يعرف الناس بحقيقة مرض بومبيدو إلا بعد أن كانت صورته تظهر على شاشة التليفزيون مُنتفخة بسبب تعاطي الأدوية بما يذكر ميشيل جوبير وزير خارجيته في مذكراته. لكن هذا «اللفظ» حول صحة ميتران، أو صورته كرمز اشتراكي كبير، والذي أصبح كالغيوم التي تلبدت بها سماء الانتخابات الرئاسية المقبلة في فرنسا، لا يجب أن يُنسينا أن الرئيس فرنسوا ميتران هو أحد أبرز الزعماء السياسيين في فرنسا والعالم، فهو الرجل الوحيد الذي تولى الرئاسة الفرنسية لولايتين كاملتين في الجمهورية الخامسة التي أسسها الجنرال ديجول في عام ١٩٥٨ وتلاه جورج بومبيدو في الفترة من ١٩٦٩- ١٩٧٤ ثم جيكار ديتان في الفترة من ١٩٧٤- ١٩٨١ ثم جاء بعدهم جميعا فرنسوا ميتران من ١٩٨١ إلي ١٩٩٤.

كما أنه الرجل الذي قاد فرنسا في مرحلة حرجة جداً من تاريخ العالم. شهدت انهيار التوازن العالمي القديم، واختفاء الاتحاد السوفييتي والدخول في وضع جديد لم يتبلور بعد، فضلاً عن أنه مؤسس تيار أو «مذهب الميترانية» الذي يهدف إلي تحقيق نوعا من التوازن بين الحريات السياسية والحريات الاقتصادية. بعبارة أخرى الميترانية هي ضوء أحمر أمام أي انفجار اجتماعي محتمل، بمعنى أنها دفاع عن الضمان الاجتماعي وبعض المكتسبات الأخرى مثل إعادة توزيع الدخل، وفرض ضرائب جديدة على رؤوس الأموال، وتخفيض ساعات العمل من ٤٠ ساعة في الأسبوع إلي ٣٥ ساعة، وتخفيض سن التقاعد إلي الستين، وزيادة الأجور وإلغاء عقوبة الإعدام..

باختصار الميترانية هي محاولة للمزج بين مصلحة الدولة الاقتصادية والحقوق الاجتماعية للأفراد.

يبقى أن نذكر أن الرئيس فرنسوا ميتران قد وضع عدة مؤلفات ضمنّها فكره السياسي والاجتماعي، وتوجهاته الاشتراكية وأهمها:

– «على حدود الاتحاد الفرنسي» صدر عام ١٩٥٣، ويتحدث فيه عن أهم القضايا المطروحة آنذاك، والخاصة بعلاقات فرنسا مع مستعمراتها الخارجية.

– «الحضور الفرنسي والتخلي» صدر عام ١٩٥٧ ويتحدث عن استقلال المستعمرات ودور فرنسا في العالم.

– «الصين التحدي» صدر عام ١٩٦١، ويتضمن إعجابه بالتجربة الصينية.

– «الانقلاب المستمر» صدر عام ١٩٦٤ ويتضمن ردود غير مباشرة على الجنرال ديجول، وأسباب الخلاف بين الرجلين.

–«نصيبي من الحقيقة» صدر عام ١٩٦٩ وهو عبارة عن مقابلة صحفية مُطوّلة تتناول مختلف القضايا الداخلية والخارجية.

– «اشتراكية الممكن» صدر عام ١٩٧١ وفيه يشرح وجهة نظرة حول اليسار عموما.

– «الوردة في اليد» صدر عام ١٩٧٣، واستوحى منه أصدقاؤه شعار حملته الانتخابية

– «البتنه والبذرة» صدر عام ١٩٧٥، ويشتمل على تعليقات حول كل الأحداث التي وقعت بين عامي ٧١و ١٩٧٤.

– «السياسة» صدر عام ١٩٧٧، وهو عبارة عن مجموعة رسائل وكتابات سياسية قصيرة.

– «النحلة والمهندس» صدر عام ١٩٧٨، ويتضمن مواقف ميتران ومذكراته حول الأحداث التي وقعت بين ١٩٧٥ و١٩٧٨.

أما كتابه الأخير فهو بعنوان «هنا والآن» صدر عام ١٩٨٠، استعدادا للحملة الانتخابية التي خاضها في عم ١٩٨١ وهو عبارة عن صدار صحفي طويل..

أخيرا لا يفوتنا أن تشير إلي أن بقاء الرئيس ميتران في مقعد الرئاسة في الأشهر القليلة القادمة وحتى مايو القادم. يتوقف كثيرا على تطورات مرضه التي تكثر حولها التكهنات خصوصا بعد أن صرح الأطباء المعالجون قبل أيام أن حالته يصعب التحكم فيها.

حلم «فرنسا العظمى».. خارجيا!

بعد مرور أكثر من ١٠٠ يوم على اعتلاء الرئيس جاك شيراك كدس الرئاسة في قصر الإليزيه لم يعد كافيا على أحد أنه اعتد سياسة مُعايرة السياسة سلفه الرئيس فرنسوا ميتران الذي ظل مُهيمنا باقتدار ولمدتين رئاسيتين كاملتين، على قصر الإليزيه خصوصا في مجال السياسة الخارجية التي يُعتبر رئيس الجمهورية– وبمقتضى الدستور الفرنسي نفسه– هو صاحب القول الفصل فيها، أو مُهندسها

الأول بحسب التعبير الشائع في مثل هذه الأمور..

وكلنا يذكر كم كان الرئيس فرنسوا ميتران (الاشتراكي) قابضا على توجهات هذه السياسة على الرغم من أن وزير خارجيته في السنوات الأخيرة من حكمه كان «يمينيا».

والحق أن القنوات العامة الكبرى التي تسير فيها السياسة الخارجية للرئيس الفرنسي السابق شيراك لم تكن غائبة تماما عن بال المراقبين لأن شيراك كان قد تحدث عنها أكثر من مرة إبان حملته الانتخابية، كما أكدها وكدرها بعد ذلك أنصاره المقربون وعلى رأسهم رئيس الوزراء آنذاك ألان جوبين.. وهي قنوات تصب على كل حال في نهر واحد هو نهر «الحلم الديجولي» الشهير الذي يتعلق بصورة فرنسا كقوة عظمى في العالم..

وللإنصاف يجب أن نذكر أن هذا «الحلم» ليس مجرد رغبة تملك على الديجوليين أمرهم، بقدر ما هو منهج في السلوك والحياة، وهو ما عبر عنه بصدق الرئيس جاك شيراك في لقائه الأخير الذي جمعه لسفراء فرنسا المعتمدين في الخارج وعددهم نحو ٢٠٠ سفيرا عندما قال:

«إن حُلم فرنسا العظمى ليس مجرد اجترار للماضي ودغدغة المشاعر الوطنية الكامنة فينا، ولكنه أسلوب للتكيّف مع الظروف المُحيطة بنا، وإصلاح وتجديد باتجاه الأفضل من أجل ضمان الاستمرار في التأثير على الأحداث الجارية».

وقد تحدث ألان جوبين رئيس الوزراء عن هذا الحلم بطريقة أخرى فوصفه بأنه «رغبة في إحداث ثورة في التوجهات الخارجية لفرنسا مُشيرا إلى أن ميزانية فرنسا لعام ١٩٩٦ ستكون مُكدّسة في الجزء الأكبر منها لخدمة أغراض هذه التوجهات.

وعلى أية حال، يمكن أن نرصد ملامح هذه التوجهات في عدد من القضايا

الأساسية، تأتي في مقدمتها السياسة الدفاعية الجديدة لفرنسا والتي أعلن عنها الرئيس جاك شيراك في شهر يونيو الماضي عندما قال: «إن فرنسا تعتزم القيام بثماني تجارب نووية في مياه جزر موروروا بالمحيط الهادي وقد أجريت التجربة الأولى بالفعل قبل فترة.

والحق أن هذه الخطوة من جانب الرئيس الفرنسي السابق القوة الإستراتيجية لبلد ما لا تكمن في الوزن الديموجرافي أو حتى الاقتصادي بقدر ما تتمثل في قدرتها على امتلاك القوة النووية.

وقد ارتاح الرئيس الفرنسي لهذا القرار الذي يعتبره المحللون «وصية ديجولية» قديمة بالنظر إلى أن الزعيم الراحل شارل ديجول كان أول من تحدث عن هذه الأمنية الغالية، بل ودفع ثمنها غاليا عندما انسحب في حينه من القيادة العسكرية لحلف الأطلس، لكي يكون حراً في امتلاك قراره الاستراتيجي. وعلى الرغم من المعارضة القوية لهذا القرار الفرنسي والتي تتمثل في بعض المظاهرات داخل فرنسا وخارجها، إلا أن الرئيس شيراك ماضي في طريقة غير مُلتفت إلى هذه الاحتجاجات التي تصله من أطراف مختلفة من بينها جمعية «السلام الأخضر» إلا بالقدر الذي تستحقه وهو قدر محدود كما يقول ويؤكد، على كل حال.

وفي تطور جديد لانعكاسات وردود الفعل التي أثارها القرار الفرنسي بإجراء التجارب النووية أبدى الرئيس جاك شيراك استعداده لأن يكون السلاح النووي الفرنسي في خدمة الأمن الأوروبي. وهو ما يُعلق عليه ألان جوبيه موضحا: «إن الاتحاد الأوروبي لم يعد بمقدوره أن يتجاهل البُعد النووي لأمننا المشترك» في إشارة منه إلى أن انتهاء الحرب الباردة لم تنه التهديدات أو «صراع» المصالح الذي قد يحُتم الصدامات العسكرية بكل أسلحتها بما فيها السلاح النووي!

أما القضية الأخرى التي برزت فيها التوجهات الفرنسية الخارجية بشكل يحمل خصوصيات الدولة العظمى فهي قضية البوسنة، والتي لم يكن مُقدرا لها

– حسب أغلب التحليلات– أن تسير باتجاه الانفراج كما حدث، لولا الجهود الفرنسية، الألمانية ولكن الجهود الفرنسية هي الأعلى صوتا والأبعد أثرا.

والبوسنيون عندما يتحدثون عن الجهود الفرنسية يعنون بها جهود الرئيس شيراك تحديدا، لأنهم مازالوا يذكرون موقف الرئيس ميتران الذي كان داعما على طول الخط للعرب غير مُبال بالبوسنيين إلا بالقدر الضئيل الذي تسمح به الإعاقات الإنسانية!

ولذلك فالرئيس شيراك يُلقب في البوسنة حسب تعبير صحيفة لوموند، بأنه «صديق سراييفو» خصوصا بعد تصريحاته الحاسمة التي أدلى بها قبيل الضربة الأولى التي وجهتها قوات حلف شمال الأطلس للقوات العربية الملتفة حول مدينة سراييفو.. وقد شرح الرئيس شيراك موقفه من الأحداث في البوسنة بإسهاب في اجتماعه الأخير مع سفراء فرنسا في ٣١ أغسطس الماضي بقصر الإليزيه قائلاً: «إن الخطر المحدق بأوروبا هو أنها كانت غير قادرة على الحفاظ على السلام في أراضيها.. والدليل على ذلك أن سرطان التطهير العرقي قد ظهر ونما وترعرع في يوغسلافيا السابقة دون أن يكترث له أحد، ثم كانت النتيجة أنه بدأ يستشري في المناطق المجاورة، ولولا أن تعاونت قوات الرد السريع مع قوات حلف شمال الأطلس لوقفه والتصدي له، لما تغيرت المُعطيات السابقة.

وشدد شيراك على أن بلاده، منذ الآن فصاعدا، ستعتمد الأسلوب الدبلوماسي، وكذلك وسائلها العسكرية إذا لزم الأمر، للدفاع عن البوسنة وقال إن فرنسا لا تقبل أي محاولة لتقسيم هذه المدينة، وترفض بشدة الحلول البربرية المطروحة من جانب العرب والتي تستهدف التطهير العرقي المقين.

وطالب الرئيس شيراك المجتمع الدولي بالاعتراف بدولة البوسنة وبحقها وسيادتها داخل حدود آمنة. وقال: إن أي حلول أخرى ستكون بمثابة الإهانة لمستقبلنا وللقيمّ التي تحكم حياتنا.

وهذا التوجه الفرنسي- الشيراكي تجاه البوسنة يختلف كما هو ثابت ومعروف، عن الموقف الفرنسي في عهد الرئيس الأسبق فرنسوا ميتران الذي لم ينس البوستيون بعد أنه عندما قام بزيارته المفاجئة لمطار سراييفو في ٢٨ يونيو ١٩٩٢ وبعد (؟؟؟) الحرب بعدة أشهر كان سببا مباشراً في كل الهزائم التي حلت بهم، لأنهم كانوا في ذلك الوقت أصحاب اليد الطولي في صراعهم مع العرب.. بكلمة أخرى.

لقد كان ميتران «عدوا» بصورة من الصور للبوسنيين الذين كانوا ينظرون إلي الجنود الفرنسيين المشاركين في قوات حفظ السلام في البوسنة على أنهم «أمراء السوق السوداء» وخط الدفاع الأول عن العرب.. أما الآن فلقد تغيرت الصورة من النقيض إلي النقيض في عيون الشعب البوسني، ليس فقط تجاه الجنود الفرنسيين، ولكن أيضا تجاه فرنسا ككل. وهو موقف يسجله البوسنيون «لفرنسا- شيراك» بامتنان عبّر عنه الرئيس عزت بيجو فينش عندما دعا الرئيس شيراك مؤخرا، لزيارة سراييفو واصفا هذه الدعوة بأنها «خاصة» وتحمل كل معاني المحبة والتقدير.

أما القضية الثالثة فهي قضية التوجه ناحية القارة الآسيوية. ويبرز الموقف الفرنسي بوضوح في حديث لوزير الخارجة الفرنسي السابق ارفيه دي شاريت قال فيه «إن آسيا هي حدودنا الجديدة» وأضاف: إن فرنسا ننظر بكثير من الأمل إلي أول قمة أوروبية- آسيوية تنقعد في الربيع المقبل في بانكوك.

ويذهب المحللون إلي القول بأن هذه الحدود الجديدة التي تمتد بفرنسا حتى تصل إلي آسيا ليست إلا محاولة من جانب شيراك لاستكمال صورة الدولة العظمى. ففي هذه المنطقة من العالم يوجد أكبر تجمع بشري وخصوصا في الصين، وهي مسألة ذات أهمية خاصة بالنظر إلي رغبة فرنسا في أن يكون لها وجود أو ثقل بشكل ما في العالم الخارجي.

ويشر البعض إلي أن سبب اختيار منطقة جزر موروروا في المحيط الهادي كمكان لأجراء التجارب النووية هو سبب إستراتيجي يخدم هذه الغاية السابقة، لأن المناطق المجاورة هي الصين صاحبة الحشود البشرية الضخمة كما أسلفنا ثم أستراليا أكبر مُستودع للمواد الأولية.. وهي اعتبارات تخدم في النهاية الحلم الفرنسي خصوصا بعد ما أيقنت فرنسا أن الباب موصد في وجهها في دول أوروبا الشرقية بسبب النفوذ الألماني هناك.

ويتعلق بذات الحلم، التوجه الفرنسي ناحية جنوب البحر المتوسط وهنا يظهر التباين في أوضح صورة بين سياسة الرئيس شيراك وسياسة سلفه الرئيس فرنسوا ميتران خصوصا فيما يتعلق بالدول العربية إجمالا، وبالدول المشاطئة للبحر المتوسط على وجه الخصوص.. فالمعروف أن الرئيس ميتران لم يكن يُعطي اهتماما كبيرا للعرب ولوزنهم إقليميا ودوليا.. ولعل هذا الاهتمام المحدود قد ترجمه وزير خارجية رولان دوما عندما قال في واحد من تصريحاته الشهيرة: أن السياسة العربية لفرنسا هي وهمُ، ولم يكن لها أساس أو وجود في يوم من الأيام!

لكن مع الرئيس شيراك تبدلت الصورة إلي حد النقيض، لأن ميول الرئيس شيراك العربية معروفة سلفا، فضلاً عن صداقات الشخصية مع عدد من القادة والزعماء العرب منهم الرئيس مبارك، والملك حسن، ورئيس الوزراء اللبناني رفيق الحريري.

وفي إطار هذا التوجه الجديد تجاه المنطقة يمكن أن نفهم لماذا تغرق فرنسا حاليا حتى أذنيّها في مشكلة مثل مشكلة الجزائر.. ولعل ما قاله وزير العدل الفرنسي جاك توبون في تعليقه على أحداث العنف في باريس، هو الجواب الناجع عندما قال: إن الأعمال الإرهابية التي تشهدها باريس مؤخرا لا أسباب لها في علمنا حتى الآن، ويبدو أنها تشبه كثيرا أحداث العنف التي تحدث في جنوب المتوسط».

وبذلك يربط الوزير الفرنسي شمال البحر المتوسط بجنوبه في إشارة ذكية واعية تعكس التوجه العام الذي ستكون عليه السياسة الخارجية الفرنسية في عهد الرئيس جاك شيراك والتي تنطلق من أن مصالح الدول المشاطئة للبحر المتوسط هي مصالح مُتشابكة وتغرب بجذورها في أرض مشتركة، وأن استقرار الأوضاع في الجنوب يؤثر حتما على الأوضاع في الشمال..

ومما يساعد في تصورنا على الدفع بقوة في هذا الاتجاه «جنوبا» من قبل فرنسا، هو أن رئيس الوزراء الفرنسي ألان جوبيه وأحد أبرز مؤيديه، يؤمن بأهمية الامتداد جنوبا وبالفكرة المتوسطية إجمالا لأنها تنبع من الفهم العميق لتاريخ المنطقة ويرى أن مصلحة أوروبا شعوبا وحكومات تقضي بضرورة إنشاء قضاء للسلام والتعاون بين شمال المتوسط وجنوبه لأن ذلك سيفتح آفاقا واسعة للتعاون بين أوروبا ودول جنوب المتوسط من الغرب إلي تركيا.

كما يدعو جوبيه لإنشاء روح التضامن والثقافة في إطار سياسة ذات ثلاثة جوانب: الأول هو الحوار السياسي والأمن على أساس مبادئ القانون، واحترام الحريات وحُسن الجوار، وإتباع الحلول السلمية في فضّ المنازعات.

والثاني هو إنشاء منطقة واسعة للتبادل الحر، مصحوبة بتعاون مالي مع أوروبا وإنشاء آلية تخدم دول جنوب التوسط على غرار الآلية التي تم إنشاؤها لصالح دول شرف أوروبا.

والثالث هو تطوير البُعد الإنساني للعلاقات بين دول شمال وجنوب التوسط من خلال الحوار التضامن الذي يساعد على زيادة فم الأطراف لبعضها البعض.

ويطمح جوبيه (رئيس الوزراء آنذاك) فيما هو أبعد من ذلك عندما يقول: «في القرن المقبل يمكن أن ننشئ قضاء للاستقرار الأوروبي- المتوسطي أو بالأحرى، إيرام معاهدة للاستقرار في التوسط مثلما نفعل في أوروبا الشرقية».

ثم يُسهب ألان جوبيه في شرح فكرة أطلق عليها اسم «الشراكة التوسطية» فيقول: يجب علينا أن نعترف بأن المفهوم الشائع في دول الجنوب عن «الغرب المُهيمن» قد أضرنا كثيرا، ولذلك فالمصلحة تقضي أن نتحرر من هذا المفهوم لنبني علاقات شراكة صحيحة ومتوازنة مع دول المتوسط، كما يجب على فرنسا ألا تقبل بالانفصام بين العالم الأوروبي والعالم الإسلامي.. وأن ترفض فكرة «صدام الحضارات» لأنها لا تتفق مع الأوضاع الدولية الحالية، وعلينا أن تقدم العون لحكومات دول المنطقة التي تختار أساليب التنمية الاقتصادية، وتطوير العمالة في إطار تحرر الأسواق. وكان جوبيه قد أعرب عن رغبته في أن يتمكن المؤتمر الأوروبي- التوسطي الذي انعقد في برشلونة من بلورة مشروع هذه الشراكة.

وفي هذا الخصوص نرى أنه من المفيد الإشارة إلي تصريح أخير كان أدلى به وزير الخارجية الفرنسي السابق ارفيه دي شارية عقب مباحثاته قبل نحو أسبوعين مع السيد عمرو موسى وزير خارجية مصر الأسبق قال فيه: «إن فرنسا تضع آمالاً كبيرة على فكرة التعاون بين شمال البحر المتوسط وجنوبه، وتنظر بعين التفاؤل لمؤتمر برشلونة المقبل، وتود أن تسير مع مصر- يدا في يد- من أجل تحقيق رفاهية وأمن منطقة حوض البحر المتوسط.

وبهذه القضايا الأوروبية، والآسيوية، والمتوسطية تكتمل المحاور الأساسية للطموح الشيراكي الخاص بفرنسا العظمى.. لكن هل يقدر له الاستمرار في إخراجه إلي حيز الوجود أم أن العراقيل التي تدأب بعض الأطراف الدولية على وضعها في طريقة تنال من هذا الطموح..

على كل حال، هذا ما تكشف عن الأحداث القادمة سواء التي تشهدها باريس على الصعيد الأمني أو تلك التي تشهدها الساحة الأوروبية والدولية بإيعاز من الولايات المتحدة التي تود أن تظل هي الوحيدة في العالم التي تقبض على مفاتيح السلاح الاستراتيجي!

فرنسا والعرب: إصرار على الخطأ!

يرتكب رجال السياسة (والثقافة) العرب جريمة كبرى- من وجهة نظري- هي الإصرار على النظر برومانسية حالمة إلي فرنسا وقد يعود ذلك إلي أزمان غابرة كان يذهب فيها زعيم وطني كبير بحجم مصطفي كامل إلي باريس ليقدم صورة إلي رئيس الجمعية الوطنية الفرنسية تبدو فيها مصر راكعة أمام فرنسا تطلب منها العون لإقناع انجلترا بأن تنهي احتلالا في وادي النيل..

وقد تعود أيضا إلي جيل رفاعة رافع الطهطاوي الذي كان مُنبهراً بفرنسا ومفتوناً بشعار: حرية إخاء، مساواة- وكتاب روح القوانين لمونتسكيو- والعقد الاجتماعي لجان جاك روسو.. وصولاً إلي أجيال عربية لاحقة شاهدت جان بول سارتر وهو يسير ضمن مظاهرة في باريس مطالبا بحق الجزائر في الاستقلال من الاستعمار الفرنسي!!

ثم جامعات السوربون (الأربعة) التي تفتح أبوابها للوافدين من جميع أنحاء العالم، ليتلقوا العلم في مدرجاتها مجانا..

هذه الصورة الحالمة- ورغم أنها كانت صادقة في مراحل بعينها إلا أنها اعتورها- حاليا- تثير من النقصان، فضلاً عن أن النظرة الموضوعية تقضي بأن نفصل بين وجه فرنسا الثقافي ووجهها السياسي، فالأول لا يتغير إلا عبر أحقاب زمنية متباعدة بينما الثاني يتغير بتغير الأشخاص والمصالح..

كانت هذه مقدمة ضرورية قبل أن تتوقف أمام الدور الفرنسي في الشرق الأوسط، والذي- يبدو أنه أصبح أكثر انغراسا في المنطقة مع مجيء نيكولا ساركوزي إلى قصر الإليزيه رئيساً..

فالرجل- كما يعلم الجميع- جاء برؤى وتصورات (عن بلده والعالم) مُغايرة تماماً لسلفه الرئيس شيراك على الأمل، لكنه- كما هو واضح أيضا- لم يترك أي شيء للمصادفة تحركه أو ترسم له سياساته..

والمشكلة هنا، لا تنبع فيه أو من هذه السياسات التي يتبعها، دائما في العقل السياسي العربي الذي يُصر على حالة (السكونية) التي يعيش فيها (في بُلهنية!) ولا يريد تغييرها.. ويتمسك برؤيته لفرنسا كما ورثها عن الأسلاف والأجداد رغم أن واقع الحال أصبح غير ذلك.. والتحال الصارخ على ذلك هو زيارة الرئيس ساركوزي الأخيرة لإسرائيل وخطابة في الكنيست.. والتي يراها بعض العرب- ولا أدرى كيف؟!- علامة مضيئة، وجرأة غير معهودة، وإضافة تحسب للعرب!!

مع أن الرجل تحدث- مجرد حديث- عن أشياء ليست جديدة، مثل حديثه عن قيام دولتين (فلسطينية إلي جانب الإسرائيلية) واللاجئين، ووقف المستوطنات.. وكلها قضايا كدنا نحفظها عن ظهر قلب لكثرة ما وردت في مرجعيات السلام منذ مدريد وأوسلو وحتى أنا بوليس الأخيرة..

لكن- وامتدادا للنظرة العربية الرومانسية لفرنسا، نتعمد- ربما- أن تظهر كالبلهاء، ونبدو وكأننا نسمع هذا الكلام لأول مرة.. ثم يصفق منا من يصفق ونعتبر ساركوزي بطلاً مفواراً يدافع عن حقوقنا أو يطالب بها.. مع أن شيئا من ذلك لم يحدث.. إنه مجرد أشار إليها في حديثه. فعل كثيرون قبله!

ولو تابعنا الميديا العربية سنجد أنها لها تبرز في خطاب ساركوزي في الكنيست سوى هذه العبارات الفارغة من كل معنى، وغاب عن بالها أن الرئيس الفرنسي السابق- مثلاً- لم يتحدث لا من قريب أو بعيد عن آليات لتفصيل ما ذكره بشأن القدس عاصمة للدولتين أو قيام الدولتين بالأساس.. ثم ما هي حدود الدولة الفلسطينية.. وماذا عساه يعني باللاجئين.. والمستوطنات.. خصوصاً أن إسرائيل بارعة في تمييع المواقف، وتذويب المفاهيم، وطمس ملامح جميع الرؤى والتصورات..

كما غاب عن بال الميديا العربية- ربما عمداً- أن ساركوزي لم يختلف- فيما قاله- عن نظيره الأمريكي جورج دبليو بوش الذي تحدث عن ظهور دولتين

فلسطينية وإسرائيلية مع حلول عام ٢٠٠٥، وهو ما لم يحدث، ثم تحدث عن ظهور هاتين الدولتين قبل رحيله من البيت الأبيض وهو ما لن يحدث!

أقول إن ساركوزي جاء لينسج على متوال الكذب الذي برع فيه الرئيس الأمريكي فنحدث بدوره في الكنيست عن دولتين.. لكن متى وكيف وأين (لا أحد يعرف!)

ثم ما هو الفرق بين ما قاله ساركوزي عن دعم فرنسا لإسرائيل إذا ما تعرضت الأخيرة إلي تهديدات وبين ما قاله جورج دبليو بوش من أن إسرائيل سوف تجد إلي جوارها ٣٠٠ مليون أمريكي إذا تعرض أمنها للخطر!!

الفروق غير موجودة، والتماهي بين الرجلين والموقفين الفرنسي والأمريكي شديد.. لكن- ما العمل- والعقل السياسي العربي يُعّد على التمييز متحدثا عن فروق لا أساس لها..

كما نسى هذا العقل (المُفتري علينا) أن ساركوزي ذهب إلي إسرائيل ليتلقى التهاني والتبريكات من إسرائيل على الدور الذي لعبته في فرنسا في إقناع الاتحاد الأوروبي بمنح إسرائيل شبه العضوية في الاتحاد بحيث تصبح شريكا في القرار السياسي والاقتصادي والأمني والعسكري..

وهو حلم إسرائيلي قديم وكبير، لكنه تحقق، وليس مستبعداً أن تدخل إسرائيل دائرة اليورو- بعد ذلك- ودائرة شنجه الحدودية أيضا..

وكذلك ليتلقى التهاني على مشروعه الاتحاد من أجل المتوسط الذي يحقق حلماً عزيزاً لإسرائيل وهو الانخراط اقتصادياً مع العرب، والتطبيع معهم (مجانا) وبدون مقابل..

وكلنا يعلم أن قمة بيروت (٢٠٠٢) كانت أقرت ما يُسمى بالمبادرة العربية التي ننطلق من قاعدة الأرض مقابل السلام وكأني بالاتحاد من أجل المتوسط

يضرب هذه المبادرة في العنف فيرديها قتيلاً ليحل محلها تطبيع مجاني مع الدولة العبرية التي سيتحقق لها ما كانت تأمله منذ زمن وهو استخدام العقل (والتكنولوجيا) الإسرائيلية مع المال الخليجي والأيدي العاملة المصرية الرخيصة.. أي تبدأ الحقبة الإسرائيلية التي تقود فيها العرب.. ولذلك فإن الاتحاد من أجل المتوسط الذي استبعد السياسة تماماً واستقر على الاقتصاد إنما يقدم خدمات جليلة للدولة العبرية..

أريد أن أقول في النهاية إن العقل السياسي العربي لا يزال يرتكب حماقات في حق الشعوب العربية بإمراره على أن يرى في فرنسا- وأوروبا بالتبعية- ما ليس فيها..

فكل شيء من حولنا وتحت أقدامنا قد تغيّر، أما رؤيتنا الرومانسية لفرنسا والفرنسيين فلا تزال تعشش في الرؤوس.. ولذلك كان طبيعيا أن تكون مثار سخرية من الآخرين، وأن يكون حصادنا السياسي- إقليميا ودوليا- صفراً.

تحولات السياسة الفرنسية في الشرق الأوسط!

يؤلمني كثيرا أن أقول إن نهر العلاقات الدولية دافق، وتجري فيه مياه كثيرة.. وتتبدل مواقف، وتختفي دول وكتل وإمبراطوريات بينما لانكاد في مصر والمنطقة العربية نزحزح نظرتنا للأحداث الإقليمية والدولية من حولنا قيد أنملة، فأصبحنا وكأننا خارج التاريخ! مع أن العلاقات الدولية ـ بطبيعتها ـ لا تقبل السكون وإنما هي في صيرورة دائمة لأنها تأتي انعكاسا للمصالح..

وهذه الأخيرة متغيرة دائما وهو ما يستتبع بالضرورة حدوث تغيير في هذه العلاقات، ولا ضير في ذلك ففرنسا ـ التي أود الحديث عنها ـ كانت تلعب ـ برحابة صدر منقطعة النظير ـ دور الشرطي في القارة السمراء إفريقيا، وكانت بعض العملات النقدية الأفريقية ترتبط مباشرة بالعملة النقدية الفرنسية، لكن عندما

رأت أن مصالحها تفرض عليها السير في اتجاه آخر ـ لم تتردد فرنسا في رفع يدها ـ نهائيا ـ عن أفريقيا وقامت بتقليص فوري لعدد قواتها ونوع عتادها هناك، كما تركت العملات الأفريقية التي كانت تساندها وتقف في ظهرها.. وحدها في مهب الريح..!

أريد أن أقول إن فرنسا اليوم ليست هي فرنسا في زمن طه حسين، بل أقول إن فرنسا في عهد الرئيس هولاند ليست هي فرنسا في عهد ديجول أو ميتران أو شيراك.. فالسياسات قد اختلفت وكذلك المصالح، ومن ثم لا تثريب علينا إن قمنا بتغيير نظرتنا لها.. وهذا ما نطالب به في كل الأحوال.. ففرنسا ـ كما أراها ـ تستغل هذا الإرث العاطفي الذي يحمله المصريون لها وتبيع لنا مواقف وسياسات لا يمكن تسميتها بغير أنها سياسات تتناقض مع أمن واستقرار العالم العربي. والمثال الصارخ علي ذلك جاء علي لسان الرئيس السابق ساركوزي عندما دعا ـ في تصريحات رسمية ـ دولة قطر أن تقوم بمبادرة سلام في دارفور وجنوب السودان.. جاء هذا التصريح في معرض تسجيل إعجابه بالدور القطري في رأب الصدع بين الأطياف السياسية اللبنانية والذي كان وصل إلي طريق مسدود في حينه!

وليس خافيا علي أحد أن الرئيس ساركوزي يعرف أبعاد الدور المصري في (هكذا قضية) وحرص مصر علي أمن واستقرار السودان، كما يعلم ـ بلا شك ـ حيوية البعد الاستراتيجي المصري في علاقة مصر بالسودان..

وفي كل الأحوال فإن مصر ترحب بأي جهد عربي يبذل لحقن دماء الأشقاء وتقريب الهوة بين الآراء والأفكار والمصالح، لكن الثابت أن ساركوزي لم يكن بريئا تماما في دعوته رسميًا وأنه يعلم جملة المواقف القطرية في السنوات الأخيرة والتي لا يمكن وصفها بأنها تسير في اتجاه مصر والمصلحة العربية المشتركة..

موقف فرنسي آخر عبر عنه برنار كوشنير وزير الخارجية السابق عندما أشعل

نيران الفتنة ـ أو هكذا أراد ـ بين مصر وحماس في غزة صرح بأن الأصدقاء المصريين ـ بحسب قوله ـ لا يريدون أن تتكلم فرنسا مباشرة مع قادة حماس! جاء ذلك في حديثه عن تداعيات الاعتداء الإسرائيلي الغاشم علي أسطول الحرية في المياه الدولية بالبحر الأبيض المتوسط!

ولا شك أن هذا الكلام ليس مرسلا أو جزافيا ولكنه كلام مع سبق الإصرار والترصد يغفل عن عمد الدور الذي تقوم به مصر وتمخض عما يسمي بالورقة المصرية التي تدشن لمرحلة جديدة من الوئام الفلسطيني بين فتح وحماس وبقية الفصائل.. كما يهمل الجهود المصرية الدءوبة ـ منذ سنوات ـ لإحلال الأمن والاستقرار في الشرق الأوسط وإعلان الدولة الفلسطينية المستقلة.... والمرء لا يسعه ـ فعلا لا قولا ـ إلا أن يقف مندهشا أمام مثل هذه التصريحات التي أقل ما يمكن أن يقال عنها إنها تؤلم الصدور، وتعمق الخلافات دون مبررات معقولة!. وفي هذا الشأن لا تزال ذاكرة المنطقة العربية تذكر تصريحات معادية لسوريا اختار الرئيس الفرنسي ساركوزي أن يطلقها من القاهرة مما أدي إلي(تأزيم) العلاقات المصرية ـ السورية.. والأغرب أنه لم يكد يمر أسبوعان علي هذه التصريحات التي أزعجت سوريا كثيرا إلا وبادر ساركوزي بدعوة الرئيس بشار الأسد لزيارة فرنسا، وسارت العلاقات في اتجاه التفاهم والتقريب وتبادل الرؤى وصولا إلي تطبيع كامل للعلاقات بين باريس ودمشق..

ومرة أخري لا يسع المرء سوي أن يتساءل لماذا كانت هذه التصريحات الفرنسية، وما جدواها في هذا التوقيت، ولماذا كانت القاهرة مصدرها!!

وإذا حاولنا أن نرصد بعض السياسات الفرنسية مما يحدث في منطقة الشرق الأوسط سنفاجأ بمواقف فرنسية مترددة بشأن إعادة طرح فكرة إشراف الاتحاد الأوروبي علي معبر رفح وفتح باقي المعابر لكسر الحصار بشكل نهائي عن الشعب الفلسطيني في غزة.. بل يحار المرء من تردد فرنسا من فكرة قيام الاتحاد

الأوروبي بعملية تفتيش السفن المتجهة إلي غزة.. والأغرب أن فرنسا لا تكاد تحرك ساكنا إزاء هذه الأحداث وحسبها أن تكتفي بالقول: إن إسرائيل تتحفظ علي هكذا خطوات!

وإذا استدعينا للذاكرة الدعم الفرنسي الكامل والدائم لدمج إسرائيل في الدائرة المتوسطية، بل ـ وبحسب صحيفة لوموند الفرنسية ـ لم يفكر ساركوزي في إيجاد فضاء الاتحاد من أجل المتوسط إلا لكي يفسح المجال رحبا أمام الدولة العبرية لكي تكون ضمن دائرة صنع القرار الأمني والاستراتيجي في حوض البحر المتوسط..

وقد يقول قائل ـ وهو علي حق ـ إن مصلحة فرنسا هي التي دفعت رئيسها (؟؟؟) ساركوزي لاتخاذ ما يراه مناسبا لبلاده.. فطموحاته في استثمارات فرنسية في ليبيا، ورغبته في الترويج لمفاعلاته النووية في دول الخليج وتطلعه إلي توسيع قواعده العسكرية في الإمارات.. كلها أسباب تجعلنا نرفع الغشاوة عن أعيننا لكي نري في فرنسا ما فيها، وأن نكف عن نظرتنا الرومانسية إليها.. ويقيني الكامل إن الدبلوماسية المصرية ـ وهي أعرق الدبلوماسيات في المنطقة العربية تزن هذه السياسات الفرنسية بميزان العقل والمصلحة، وتحسب، بلا شك ـ لكل شيء حسابه. ففرنسا (؟؟؟) ليست هي بالضرورة فرنسا الماضي.